تجليّات السّخرية في شعر رجا سمرين

The manifestations of irony in the poetry of Raja Somrin

أحمد علي جودة*
جامعة العلوم الإسلامية العالمية – الأردن
ahmad.joudeh@wise.edu.jo

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022 / 09 / 02	2022 / 11 / 05	2022 / 12 / 01

ملخص البحث

تناولت هذه الدراسة السخرية في شعر رجا سمرين، وهو من شعراء المقاومة الفلسطينيَّة، امتزج شعره بالسخرية بطريقه مقصودة لجأ إليها، لإدانة الواقع العربي ورفضه. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، منها أنَّ السخرية رافقت شعر رجا سمرين، ومكَّنته من تعرية الواقع ونقد الظواهر السلبية في جميع المجالات بقصد علاجها، بين تصريح وتلميح وتعريض ليظهر شعره أكثر إقناعاً وتأثيراً في المتلقي بلغة مجازية انزياحية يهدف من خلالها إصلاح العيوب لتحرير وطنه فلسطين. أمَّا بخصوص منهج الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي باعتباره أداة إجرائية تروم الكشف عن السخرية في شعر سمرين، ودورها في إدانة الواقع واستثارة الهمم عن طريق تهويل الحال وفظاعته.

الكلمات المفاتيح: السّخرية، رجا سمرين، المقاومة الفلسطينية، الشّعر الحديث.

Abstract

This study deals with the manifestations of irony in the poetry of Raja Somrin, one of the poets of the Palestinian resistance, whose poetry was mixed with irony in a deliberate way that the poet resorted to. To condemn and reject the Arab reality. The study reached a set of results, including that irony accompanied Raja Somrin's poetry, and enabled him to expose reality and criticize

* أحمد علي جودة: ahmad.joudeh@wise.edu.jo

negative phenomena in all fields with the intention of treating them, among statements, allusions and exposing to make his poetry appear more convincing and influential on the recipient in a metaphorical, biased language through which he aims to fix the flaws to liberate his homeland Palestine.The study used the descriptive analytical method as a procedural tool to reveal the irony in Somrin's poetry, and its role in condemning reality and arousing anxiety by exaggerating the situation and its atrocity.
keywords: Irony, Raja Somrin, Palestinian resistance, modern poetry.

1. مقدمة

لا شكَّ أنَّ الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحالي يقوم بدور كبير في الدفاع عن قبيلته وقومه، ويحرص على الكشف عن العيوب التي يراها تحول دون تحقيق عز قبيلته ومجدها؛ فهو كالطبيب الذي يُشخِّص المرض ويصفُ العلاج إلى المريض. وأضربُ مثلاً على ذلك الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني الذي كان مُنقطعاً لمدح المناذرة، وعندما أسر الغساسنة عدداً من أبناء قبيلته (ذبيان)، تحوَّل عن المناذرة إلى الغساسنة يمدحهم ويطلب منهم الإفراج عن أسراهم من قبيلته، وأقام عندهم سنوات عديدة، حتى إذا ما مات ملوك الغساسنة رجع إلى المناذرة، وقدَّم للمنذر اعتذاراته التي أغنت الأدب العربي بروعة التصوير وجمال اللغة. وهكذا هو الشاعر يذوب في قبيلته ويُقدِّم مصلحتها على مصلحته.

إنَّ لشعراء المقاومة الفلسطينية الذين هبُّوا في شعرهم لاستنهاض العرب والفلسطينيين للوقوف بوجه المُحتل تضحيات كثيرة ودوراً كبيراً في تحريك الهمم مما أبقى شعلة النضال مُشتعلة. والشاعر رجا سمرين [1] من شعراء المقاومة الفلسطينيَّة الذين بكوا ضياع فلسطين وتمنى رجوعها، كما حاول استنهاض الهمم بشعر ثوري يحمل معاني الجهاد والتضحية في سبيل الله. وتغرَّب وذاق العذاب لأجل لقمة العيش وعاش حالة اغتراب جسدي وروحي، ولم يُثنه ما لاقى في سبيل قضية وطنه، فعاش غريباً ومُطارداً واستُشهدَ أحد أبنائه على يد اليهود في لبنان ومع ذلك صبر على معاناته وحُزنه ورفض كل مظاهر الضعف والفرقة التي يعيشها العرب، وسطَّر شعراً خالداً للدفاع عن وطنه يستثير هممهم والبحث عن أداة تؤثر فيهم في شعره.

ومع ضعف العرب وخلافهم وتفرُّقِهم ومعاهدة السلام (أُوسلو) التي وقَّعها العرب مع اليهود، تغيَّر شكل شعر رجا سمرين، فاستخدم السخرية في شعره آلية واستراتيجية لإدانة الواقع العربي، وظهرت السخرية ملمحاً فنيَّاً لجأ إليه الشاعر على أمل أن يتغيَّر الحال وتعطي السخرية ثمرتها في تحريك الهمم في نفوس العرب لِيرفض الواقع كما رفضه الشاعر في شعره، والقيام بعملية إصلاح شاملة في جميع المجالات عسى أنْ يتوحَّدوا ويرجعوا كما كانوا عُظماء، يَرهبهم أعداؤهم.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة بأنَّها تدرس شعر شاعر لم يدرسه أحد من الدارسين بعد، وتدرس ظاهرة السخرية في شعره وهي ظاهرة غلَّفت جميع شعره وجاءت فيه لِمطلب نفسي استدعته الظروف

السياسية التي أعاقت تحرير وطنه والرجوع إليها، وقد استخدمها بدافع الرفض لهذا الواقع البائس للعرب ولأهل فلسطين بتهويل الواقع وقتامة المستقبل وفظاعته.

أسئلة الدراسة: تقوم الدراسة على طرح مجموعة من الأسئلة بغرض الإجابة عليها، وهي:

هل قصد رجا سمرين استخدام السخرية في شعره؟

وما الذي دفع رجا سمرين إلى استخدام السخرية كأداة نضاليَّة في شعره؟

وهل استخدم السخرية بوظيفتها التقليدية لإصلاح العيوب؟

وما الرسالة التي أراد أن يوصلها بالإلحاح على السخرية؟

هدف الدراسة: تهدف الدراسة إلى بيان تحوُّل السخرية في شعر رجا سمرين سلاحاً لإدانة الواقع بهدف تغييره، واستخدام السخرية بأنماطها وأنواعها في شعره للكشف عن فظاعة الواقع وتنبيه العرب على الأخطار المُحيطة بهم لأسباب تعود إليهم لا لأعدائهم وعليهم أنْ يستيقظوا حتى لا يحلْ بهم ما يخاف حدوثه.

مشكلة الدراسة: تمثلت مشكلة الدراسة في عدم استخدام السخرية بهدفها التقليدي وهو إصلاح العيوب، وإنَّما استخدامها استخداماً مجازياً بتصوير أسباب ضعفهم واستسلامهم للفرقة والضعف والنوم لتنبيه العرب حول الأخطار المُحيطة بالعرب التي تُهدد مصيرهم.

أمَّا الدراسات التي تعرضت للسخرية فهي كثيرة حيث تحدثت عن أنواع السخرية والفكاهة والتهكم ولقد أفدتُ منها بحسب توجهات الدراسة، أذكر منها:

1- فن السخرية في أدب الجاحظ لِـ السيد عبد الحليم محمد حسين عام 1988.

2- السخرية في الأدب العربي لـ نعمان محمد أمين طه عام 1979.

3- الأدب الساخر لـ نبيل راغب فرج عام 2000.

4- السخرية في أدب المازني لـ حامد عبده الهوَّال عام 1982.

منهج الدراسة: استخدم الباحث في دراسته المنهج الوصفي التحليلي لتحليل شعر السخرية في شعر رجا سمرين بالوجهة التي اختارها لسخريته، لإثبات ما تذهب إليه الدراسة من نتائج. ولقد قام البحث على تمهيد وقسمين؛ أمَّا في التمهيد فقد حوت الدراسة مفهوم السخرية لغةً واصطلاحاً، وعالجت في القسم الأول السخرية وشعر رجا سمرين وأنماط السخرية في شعره، وعالجت في القسم الثاني مجالات السخرية في شعر رجا سمرين. ثم خاتمة مع توصية، يليها الهوامش، وقائمة بالمصادر والمراجع.

2. مفهوم السخرية

السخرية (لغة): بالرجوع إلى معجم لسان العرب نجد أنَّ كلمة السخرية مأخوذة من الفعل سَخِرَ: يقول ابن منظور: "سَخِرَ منه وبه سخراً ومسخراً وسُخراً بالضم، وسُخرةً وسِخرية: هزئ به... وفي الحديث: أتسخر مني... أي أتستهزىء بي، ورجل سُخرة: يسخر من الناس... ويُقال: سَخَّرتَهُ أي قهرته وذلَّلتَه"[2]، ووردت عند ابن فارس، فقال:" السين والخاء والراء أصل مُطرد مُستقيم، يدل على احتقار واستذلال"[3].

وأمَّا السخرية (اصطلاحاً)، فبعد الاطِّلاع على مجموعة من الدراسات التي درست مفهوم السخرية وجد الباحث أنَّ هذا المفهوم من المفاهيم التي بها إشكالية كون هذا المفهوم يُستخدم في الشعر والنثر، وكل دارس كان يُعرِّف السخرية بحسب دراسته وتوجهها. لذا، اختار الباحث التعريف القريب من توجهه في هذه الدراسة، وهو:

السخرية: "نوع من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس انتقاء الرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية فردية كانت أو جماعية، وكأنَّها عملية رصدٍ أو مراقبة لها، وتكون في أساليب خاصة منها التهكم أو الهزل أو الإضحاك، كل ذلك في سبيل التخلص من خصال وخصائص سلبية"[4]؛ فالشاعر الذي يلجأ إلى السخرية، يستخدمها بتكبير وتشويه العيوب والنقائص ليراها المسخور منهم عيوباً ويقنعهم الساخر ببشاعتها فيصلحون هذه النقائص ويتخلصون من تلك العيوب فيحل محلها الصفات الإيجابية التي تحقق الأهداف الفردية أو الجماعية.

ويرى ابن رشيق أنَّ السخرية لها تأثير شديد، وأنّ التعريض أهجى من التصريح ويُعلل ذلك "باتساع الظنِّ في التعريض، وشدة تعلُّق النفس به، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته؛ فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً، وقبلته يقيناً في أوَّل وهلة، فكان كل يوم في نقصان لنسيان أو ملل"(5)؛ فدائماً التلميح أبلغ من المُباشرة في السخرية الشعرية، لأنَّها تنم عن رؤية فكرية عند الشاعر لواقع مرير لن يتغير بالشعر المباشر، وإنَّما باستخدام لغة موارية فيها من التلميح والغموض ما يجعل المُتلقي يشعر بالانتصار حال كشف غموضها وإدراك مراميها.

لقول السخرية شعراً أو نثراً دوافع تدفع الأديب إلى استخدامها؛ إذ تُشكِّل نوعاً من الرفض والإدانة لعيوب سياسية أو اجتماعية... يريد أنْ يُلقي الضوء عليها ليقوم أُولو الأمر أو الأمة بتصحيحها. يقول حامد الهوَّال: "والسخرية في الأدب استراتيجية فعَّالة يسعى إليها كل مبدع لخلق جو من الرشاقة والخفَّة في أعماله، هادفاً إلى تصحيح عيوب مجتمعه بألفاظ موحية ثورية رافضاً كل شكل من أشكال الضعف والانحلال الأخلاقي والتدهور السياسي والاقتصادي على السواء"[6]. ولهذا، فإنَّ الشاعر الذي يستخدم السخرية في شعره يستخدمها بشكل مقصود وبهدف يريد إيصاله إلى مجتمعه وأُمته، فهو يمتلك حساسية تجعله يكشف العيوب ويسخر ممن يتصف بها لعلمه اليقين بأنَّ الذي يعرف عيوبه يُحاول إصلاح نفسه للتخلص منها.

والمصطلحات الأخرى التي تجمع مصطلحات الضحك أو الفكاهة تتقارب وتتباعد بحسب الغرض منها؛ فإنْ كانت للإضحاك فنستخدم المزاح والنكتة والدعابة، وإنْ كانت للاستهزاء والاحتقار فنستخدم التهكم والهجاء واللذع، وإنْ كانت لتبيين العيوب بغرض الإصلاح فنستخدم السخرية لما فيها من إظهار العيوب وتكبيرها وتشويهها بهدف علاجها؛ فنحن عندما نسخر من شخص ما، نقوم بجعل المسخور منه يفعل عكس ما نعيبه به ونسخر مما يفعله؛ فإنْ سخرنا من ضعفه حاول أن يُثبت قوته فيظهرها، وإنْ قلنا عنه غبياً مثلاً حاول أنْ يُظهر ذكاءه؛ فنحن عن طريق السخرية، نستثير همته لفعل ما نريد منه فعله. وهذه طريقة الشعراء الأذكياء بالسيطرة على الأشخاص حكاماً ومحكومين وتوجيههم الوجهة التي يريدون؛ إذ يتحوَّل الشعر خطاباً يهدف إلى التأثير والإقناع تارة والأمر العكسي بإظهار عيب وتشويهه لمعالجته.

والسخرية من أنواع الضحك أو الفكاهة التي تهدف إلى تشويه العيوب (الأخلاقية، أو السلوكية، أو العضوية، أو الحركية، أو العقلية) إذا استخدمت على الفرد للاستهزاء والتهكم عليه. أما إذا استُخدمت للجماعة في المجال السياسي أو الاجتماعي، فهي تُستخدم لإظهار العيوب والهدف منها الإصلاح، ومن ثمَّ، الوحدة والتحرر من جميع أشكال الاستعمار التي جعلت الأمة العربية ترزح في الجهل والضعف وتكالب الأمم عليها، كما فعل رجا سمرين في شعره حيث اتخذ السخرية الجماعية وكان يهدف ليس فقط إصلاح العيوب بقدر الوقوف بوجه أعداء أُمته وتحرير ما احتَّه الأعداء من أرض المسلمين.

2. 1. السخرية في شعر رجا سمرين:

يقترب الأدب الساخر من الأدب الرمزي فهو يُغلِّف الحقائق، ويُخفي ما يشعر به الساخر من غضب ورفض وتمرد وشعور بالغربة؛ فيعمد إلى إلباس معانيه لبوساً قابلاً للتأويل مفتوحة الدلالة عند المُتلقي، ويلجأ إلى ذلك لخوفه من السلطة، إذا كان في التصريح خطر على حياة الأديب [7]؛ فيلجأ الأديب الساخر للسخرية عندما لا يكون قادراً على إبراز غضبه؛ فتصبح السخرية ملاذاً نفسياً يُحقق انفعال الأديب ويستوعب حدَّته وثورته، وقد تأتي بباعث الزهو والشعور بالتفوق العقلي عند الساخر، فينزع إلى السخرية والغموض معاً.

تُمثل السخرية أحد أهم أشكال الرفض في الشعر الحديث. ويلجأ الشاعر إليها لإدانة الواقع الذي يعيشه ويراه مليئاً بالظلم والاستبداد والقهر، ويقف الشاعر الذي يحمل هموم أُمته ومجتمعه بوجه كل أشكال المُصالحة مع مَنْ يحتل وطنه، محاولاً توعية أمته واستنهاض هممهم للدفاع عن أرضهم وتحريرهم من العبودية والظلم، وعندما يفقد الأمل من تحقيق أُمنياته يلجأ إلى استخدام السخرية لما فيها من لذع وتعريض. وهنا، تتغير وجهة نظره من مُناضل غاضب إلى رافض ساخر. وهذه السخرية التي يُوظفها في شعره تحمل في طياتها قهراً داخلياً نفسياً لديه، ليحمل السخرية بجميع صورها. لقد أفاق على واقع العرب في هذا الزمن؛ فوجده واقعاً مريراً يُعشش فيه الجهل والكسل والظلم؛ فأصبح شعره يحمل مضامين الثورة على كل الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية والتعليمية والأدبية، واستخدم السخرية لعلمه بأنَّها سلاح مميت إذا

استخدمها شاعر يعي بأنَّها "تعرض السلوك المعوجّ أو الأخطاء التي إنْ فطن إليها وعرفها فنَّان موهوب تمام المعرفة، وأحسن عرضها، تكون حينئذٍ في يده سلاحاً مميتاً"[8]. لقد استخدم سمرين السخرية في شعره سلاحاً يسعى إلى تغيير الواقع العربي أملاً في تحرير وطنه وطرد المُحتل.

ورجا سمرين من الشعراء الملتزمين الذين رفضوا الواقع الذي يعيشه أهل فلسطين بعد احتلال وطنه، ورفض واقع العرب المُزريّ؛ فقال شعراً لاستنهاض الهمم، وقتال المُحتلين مما جعله مُطارداً في كل مكان يذهب إليه من مخابرات تلك الدول؛ فاستخدم الرمز والأُسطورة في شعره ليحميه. ولتحقيق الملاذ النفسي الداخلي، تحوَّل انفعاله النفسي إلى سخرية وهذه السخرية تكبّر العيوب وتشوهها؛ فتقوم بدور الشعر المباشر وتحقِّق الهدف منه وهو القضاء على هذه العيوب التي تلحق بالأُمة أملاً في صلاحها، ولتحقيق الغاية من شعره وهي قتال المُحتل وطرده من فلسطين وإرجاع أهلها المُشردين إليها.

ورجا سمرين شاعر متمرد استخدم السخرية ملاذاً نفسياً لشعوره الرافض للواقع بكل ما فيه من عيوب تعيق تحقيق الحرية، "والساخر مُتمرد، لا يقبل بالواقع وإنَّما يطمح إلى المثال، ولهذا نجده قوي الملاحظة لعيوب المجتمع، يُتابعها ويلتقطها"[9]. وهذه الحساسية للعيوب رافقته في كل مجالات الحياة ولم ينحصر على المجال السياسي مع أنَّه من أكثر المجالات الذي تجلَّت فيه السخرية.

وثمَّة ظروف وأوقات تنشط فيها السخرية أكثر من غيرها، منها الحروب وما ينتج عنها من خراب وتدمير، كذلك فإنَّ عصور الانحطاط والتخلف والتراجع، كلها عوامل تساعد على إبراز الأصوات الساخرة[10] "التي تأتي في إطار الرفض والتصحيح"[11]. وشعراء المقاومة الفلسطينية رفضوا ما حلَّ بوطنهم، واستخدموا الرفض والسخرية لإدانة الواقع وتنبيه العرب للأخطار المُحيطة بهم، ومحاولة إيقاظهم وطرح بديل لما يحدث في مجتمعاتهم ودولهم. ويظهر، بذلك، جوهر السخرية وهو "اتجاه عقلي للحط من قيمة هذا الوضع والتعرض له بفنون الهدم"[12].

يرى إحسان عباس "أنَّ ارتباط الشعر بالثورة أفقد الشاعر الحديث قسطاً كبيراً من قدرته على السخرية، لأنَّ الغاضب المحنق لا يستطيع أن يسخر"[13]. ولكن هذا لا ينطبق على شعر رجا سمرين الثائر؛ إذ كان شعره مُشبعاً بالسخرية، ليدل على أنَّ استخدام الشاعر للسخرية يحقق ملاذاً نفسياً لِانفعال الأديب ويستوعب حدَّته وثورته وغضبه لإعادة التوازن لنفسه القلقة المُهشَّمة؛ فالواقع المرير الذي يعيشه العرب يجب أن يتغيَّر ورجا سمرين يقوم بهدم العيوب التي تبقيهم على هذه الحال بأُسلوب ساخر عسى أنْ يتنبَّهُوا ويقفوا بوجه أعدائهم أملاً في تحرر فلسطين. يقول سمرين[14]:

يا أيُّها الشعب المُعوَّق هذا عدوكَ قد تفوَّقْ

فهو يُحذِّر العرب الذين ركنوا إلى الكسل والجهل من تفوّق العدو عليهم ليس في طلب العلم فقط، بل في المجالات جميعها. وهذا مؤشر خطير عليهم أن ينتبهوا له، وأنْ يطلبوا العلم حتى لا يُفاجئهم العدو بأسلحة متطورة يقضي بها عليهم.

رجا سمرين شاعر مُثقف، واسع المعرفة، ويدل إنتاجه الأدبي والشعري على ذلك. لذا، عندما نقول إنَّه استخدم السخرية بقصد وهدف، فنحن على ثقة بأنَّه وجد فيها استراتيجيَّة فعَّالة لتوظيف الغضب والرفض والثورة التي في داخله ووجهها الوجهة المُناسبة التي جعلته ينجح في رسالته كشاعر؛ فلغته الساخرة تثير الهمم وتكشف العيوب وتزرع التصميم للوقوف بوجه المحتل.

2. 2. أنماط السخرية في شعر رجا سمرين

1. السّخرية اللّفظية

يعتمد بناء النص على اللغة، فهي أساس صياغته، واللغة الساخرة لغة انزياحيه موارية تحمل أكثر من دلالة، وعلى المتلقي فهم المفارقة اللفظية المرتبطة بها، والتي هي "من أشكال القول يُساق فيه المعنى، في حين يُقصد منه معنى آخر، يُخالف – غالباً – المعنى السطحي الظاهر"[15]. وتأتي السخرية على أشكال متنوعة؛ فقد يُصرَّح بها، كقول سمرين ساخراً من الشعوب العربية التي ما زالت مُتخلفة وعُرضة للاحتلال، ويرمز لها بالشعب المُعوَّق [16]:

يا أيُّها الشعب المُعوَّق	هذا عدوكَ قد تفوَّقْ
وبقيتَ وحدكَ خانعاً	لجراحِكَ النكراء تلعقْ
بقيودِ ذُلِّكَ راسخاً	فمتى إلى العلياءِ تسبق؟
أمضيتَ عمركَ لاهثاً	خلفَ السرابِ فكيفَ تلحقْ؟

لقد استخدم لفظة (الشعب المُعوَّق) وهو الشعب الذي لا يقوم بفعل شيء يفيده، لإعاقة لحقت به أعاقت حركته. "والرمز: تقصده العبارة وإنْ لم يتحدَّث عنه، والرمز قرين اللعب بالمعاني يستخدم لحماية صاحبه من الوقوع تحت دائرة الإحباط أو المسؤولية"[17]؛ فهو يسخر من الشعوب العربية التي لا تفعل ما تفعل باقي الشعوب وحتى الأعداء؛ فالكل يطلب العلم ويتفوَّق في جميع المجالات، أمَّا العرب فيزدادون تخلُّفاً وذُلاً؛ فلا يسعون لطلب العلم والتطوير والتقدم في أي مجال من مجالات الحياة.

واستخدم الشاعر أُسلوباً تصويرياً بتشبيه المسخور منه بالكلب (لجراحِكَ النكراء تلعقْ)، والتي تعتمد على رسم صورة لفظية بشعة لهذا الكائن الذي يلعق جراحه ولا يقوم بمواجهة مَنْ ألحقَ به هذه الجراح من أعدائه، متذرِّعاً بالصَّبر والتسويف.

وقد تظهر السخرية اللفظية بشكل مخفي؛ فتكون في ظاهرها ذات نية حسنة طيبة، وفي باطنها التهكم الذي يختفي خلف دلالات السياق كما في التعريض والمدح بما يشبه الذم والذي سيمر معنا في السخرية السياسية.

2. السّخرية الصّورية

"وهي المرتبطة بالشكل المادي للشخصيات، وذلك من خلال إبراز التضاد بين الشكل الخارجي للشخصيَّة ومضمونها"[18]؛ فهو يصوِّر الشخصية على هيئة حيوان معين لإعطاء دلالات عميقة للمسخور منه.

في إحدى قصائد سمرين يسخر بها من ضعف العرب وجبنهم، وأنَّهم لم يعودوا شجعاناً كالماضي ويصوِّرهم كالخراف. وبهذه الصورة، فقد حوَّل السخرية إلى سوداء فجائعيه، يقول رجا سمرين[19]:

زمن العروبة قد مضى ولقد أتى زمن الأعاجمْ
وبنو العروبةِ لمْ يعو دوا مثلما كانوا ضراغمْ
أمسوا خرافاً راتعيـ ـنَ لكلِّ مُفترسٍ وغاشمْ

يؤكد سمرين، في قصيدته هذه، الحال البائسة التي وصل إليها العرب؛ فقد صوَّرهم كالخراف مُستعدين للذبح لا يقومون بأي مُقاومة لأعدائهم وحتى لا يُفكِّرون بذلك؛ فهم لم يعتادوا المواجهة أو المقاومة لظلم يلحق بهم؛ فكيف يتغيرون وهم لم يعتادوا الشجاعة؟ فهم خراف وسيبقون كذلك. وبهذا الكلام يستثير العرب حتى يتغيروا ويثوروا على كل ظالم يواجههم. وفي قصيدة أُخرى يُصوِّر المحتلين بالذئاب المفترسة لهذه الخراف[20]:

أمستْ يهودُ ذئاباً في مرابعنا والذُّلُّ من دأبها من أقدم الزمنِ
ولا الخلاف الذي أمسى يُمزقنا لما أقاموا كياناً في ثرى وطني

لقد أعطى صورة ضديَّة للمحتل، فالعرب كالخراف والمحتل كالذئاب، فهذه الصورة تكوِّن ثنائية ضديَّة بين نقيضين، واستخدام الحيوان في السخرية لإعطاء صورة تشبيهية تعمِّق الدلالة بالكشف عن صفات كل من الفريسة والمفترس، فيُعطي للمتلقي تصوُّراً لبشاعة هذه الصورة في الواقع.

3. السخرية السلوكيَّة

تصوِّر هذه السخرية السلوك المناقض للشخصية، وتعتمد على المُفارقات السلوكية، و"على رسم السلوك الحركي، الغريب في دوافعه، ومسبباته، رسماً لغوياً حصيلته صورة تتكئ على الدلالة الثانية، المعنى غير المباشر، الذي يتضاد مع حقيقة الشيء وأصله، فينتج عن ذلك معنى الاستهزاء والسُّخرية"[21]؛ فمن السخرية السلوكية في شعر سمرين ما جسَّده لسلوك الطلاب في الجامعة وقت الامتحانات، فرصد سمرين حركاتهم وسلوكهم التي تناقض سلوك طلاب العلم المثالية، وهدفه – من ذلك – تعرية سلوكيات هذه الشريحة الاجتماعية التي أصابها الفساد، وأُفرِغت من محتواها التي يجب أنْ تكون عليه من صفات تتوافق مع طلبة العلم. يقول رجا سمرين[22]:

كأنَّ على هاماتهم يسكنُ الطيرُ
وذاكَ لعمري إنْ يدمْ فألُهُ خيرُ
ألا إنَّ هذا الأمر والله نادرٌ
وقد راب نفسي مثلما رابكَ الأمرُ
فقد عوَّدونا دائماً أنْ يُبرشموا
وأنْ يهمسوا همساً وأنْ ينفذَ الصبرُ

وأنْ يشرئبُّوا بالرقابِ ليلحظوا
جوابَ سؤالٍ قد تضمنه سطرُ
وألاَّ نراهم صامتين تأدُّباً
فشيمتهم غِشٌّ، وعلمهمُ نزْرُ

يستخدم سمرين السخرية من الطلبة لصمتهم؛ فيتهكم عليهم، لأنَّه خبر حقيقتهم على مدى سنوات؛ فقد كانوا، دائماً، غير مُستعدين للامتحانات النهائيَّة، ويلجؤون إلى وسائل الغش المُختلفة؛ فيستخدم "التهكم استخفافاً بالشيء والعبث الهادف به ظاهره الضحك، فتوجه اهتماماً خاصاً إلى عيب ما تجسمه وتبالغ فيه، وتسعى إلى إبرازه بوسائل عديدة"[23]؛ فهو يكبر العيوب ويجسمها والهدف من ذلك إلقاء الضوء عليها بغية لتنفير الناس منها بغية تصحيح الأوضاع الخاطئة التي تُنافي الصواب.

ومما يدلُّ على أنَّ هؤلاء الطلبة لا يشبهون طلبة العلم لفسادهم وعدم استعدادهم للامتحانات؛ فيصوِّر سلوكهم من استخدام طرق الغش المختلفة كالبرشمة (قصاصات ورقية فيها مادة الامتحان ليغشوا منها) واستخدام الهمس، والقيام بسلوك غاية في الضعة؛ إذ يشرئبُّون بأعناقهم لينظروا لأوراق زملائهم حتى يسرقوا جواباً لسؤال. وقد استخدم الشاعر عبارة (فقد عوَّدونا دائماً أنْ يُبرشموا) للدلالة على أنَّ هؤلاء الطلاب تغيَّر حالهم وأصبحت عاداتهم وسلوكهم يُخالف حال طلبة العلم، وليقرر الشاعر أنهم (شيمتهم غِشٌّ، وعلمهمُ نزْرُ)، وليؤكد بأنَّ هذا العيب الذي في طلبة الجامعة جعلهم لا يهدفون إلى طلب العلم بقدر حصولهم على شهادة لأجل وظيفة. فالهدف من الجامعة اختلف باختلاف الطلبة وأهدافهم.

3. 1. مجالات السخرية في شعر رجا سمرين

1. السخرية السياسية

تعد السخرية السياسية من أهم أنواع السخرية التي يستخدمها الشاعر لإدانة الواقع المرير. ورجا سمرين من الشعراء الذين استخدموها لرفض الواقع، وحاله هذه حال شعراء المقاومة الفلسطينيَّة الذين كان لهم دور كبير في نضال الشعب الفلسطيني واستنهاض الهمم؛ فقد لجأ إلى استخدام السخرية بما فيها من رمز وتعريض وتورية آلية تلفت نظر المتلقي لها علَّها تعمل على تنبيه العرب وإصلاح الواقع لطرد المُحتل وتحرير فلسطين. وللسخرية السياسية نوع من الدعوة غير المُباشرة لعلاج العيوب، والرجوع إلى الطريق الصحيح؛ "فسخر الشعراء لأهداف سياسيَّة بحيث سعوا إلى وضع حدٍّ لممارساتٍ سياسيَّة ودينيَّة غير مقبولة والتحريض عليها بهدف القضاء عليها، وتنقية المجتمع من آثارها السلبية" [24]؛ فحب سمرين لوطنه جعله الناقدَ الذي يكشف العيوب والمُحرضَ على القضاء عليها والمُنبِّه الذي يوقظ غفلة الأُمة؛ ففي إحدى القصائد، يسخر سمرين من العرب، حيث يقول[25]:

بُشراكم أيُّها العربُ...
عادَ الجليلُ وحُرِّرَ النقبُ
ومضتْ فلول الشَّرِّ هاربةً

تبكي أمانيها وتنتحبُ
عادَ اليهودُ إلى الشتاتِ وما
أمسى لهم وطنٌ ولا نشبُ
وغدتْ شفاهُ القدسِ باسمةً
وتكشَّفت عن غزةَ النوبُ
إنَّا لفي زمنٍ يبولُ على
كلِّ الذينَ سلاحهم خُطبُ

استخدم سمرين، في هذه الأبيات، السخرية اللفظية، "وهو استعمال مُراوغ للكلمات كالذم بما يشبه المدح أو المدح بأُسلوب الذم، ثُمَّ صارت السخرية لوناً من ألوان البلاغة والمجاز"[26]، أو التبشير في موضع الإنذار، أو الوعد في مقام الوعيد، وهذا التعبير لاذع السخرية. وفي القرآن الكريم، الكثير من الآيات التي تسخر من الكفار، كقوله تعالى: "فبشِّرهم بعذابٍ أليم" [27] و"ذقْ إنَّكَ أنتَ العزيز الكريم"[28]، لأنه مع توعده المُنافقين بالعذاب الأليم يسخر من توقعاتهم القائمة على الوهم وعُمق الإدراك، ومثله المدح في معرض الاستهزاء... وتفرَّعت إلى أكثر من أُسلوب من أساليب السخرية[29]؛ فسمرين يسخر من العرب مُستخدماً المدح في معرض الذم، فيبارك لهم رجوع فلسطين وتحريرها لما وجدهم يُكثرون من الخطب والكلام دون فعال تهكماً؛ فهل بالخُطب يُطرد المُحتل؟ وهذا النوع من السخرية فيه تعريض مؤلم، عندما قال[30]:

إنَّا لفي زمنٍ يبولُ على كلِّ الذينَ سلاحهم خُطبُ

فمن يقرأ الأبيات السابقة، يُصدِّق أنَّ وطنه قد تحرر، ولكنه في آخر بيت يُخلف توقعاته واضعاً يده على عيب خطير يلجأ إليه السياسيون، وهو إلقاء الخطب الرَّنَّانة؛ فخُطب السياسيين وكلماتهم المُنمَّقة لن تعيد الأوطان، ولن تطرد الاحتلال. ويرى الشاعر أنَّ هذا الزمن للقوي. لذا، يبول على مَنْ يتخذ الخُطب الرنَّانة بدل الأسلحة لمواجهة المُحتل المُغتصب لوطنه؛ فوظَّفَ التراث تناصاً عندما ألمح إلى بيت الأخطل يهجو قوم جرير[31]:

قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كلبَهمُ قالوا لأُمِّهم بُولي على النارِ

فسمرين يستخدم التناص لإدانة من يتخذ من الخطب وسيلة دفاعية تحميه من الأعداء مع أنَّ الأسلحة هي التي تحمي وتُرهب الأعداء وليس الكلام. لذا، فالزمن بكل ما فيه من مخلوقات (يبولُ على كلِّ الذينَ سلاحهم خُطبُ)؛ أي يحتقر ويستهين بمنْ يستخدم الخطب بدل القوة لتحرير وطنه المُحتل؛ فبيت الأخطل يهجو به البخل الشديد لقوم جرير ويصفهم بامتهان أُمهاتهم بأمرها بإطفاء النار ببولها حتى لا يرى ضيف نارهم فيأتي إليهم. كذلك يحدث لكل من يبخل على أُمته بشراء وتصنيع الأسلحة لمواجهة المُحتل؛ فيحتقرونه، مُستخدماً لفظة (يبول) دلالة على الاحتقار والاستهانة.

ويستخدم رجا سمرين السخرية باللعب بالألفاظ عندما يُخاطب اليهودي الذي قتل ابنه؛ فيقول[32]:

لمْ أكن أدري أنّي
حين ناصبتكَ ألوان العداءْ
منذ أيام رسول الله خير الأنبياءْ
وإلى الآنَ بأنّي
عشتُ في أكذب وهمْ
عندما أنكرت أنَّ الله أعطاك
مفاتيح فلسطين السليبة
فهنيئاً يا ابن عمي
وليبارك لك ربُّ الجند بالقدسِ ...
فبنو العرب حمامات سلامْ
ليس فيهم جارحٌ ينقضُّ ذوداً عن حماها

يستخدم سمرين – هنا – السخرية عن طريق اللعب بالألفاظ، واللعب بالألفاظ يعتمد على الاشتراك المعنوي في اللفظ الواحد، والتلاعب اللفظي الأساس فيه هو مُحاولة المتندر أنْ يُكسب الألفاظ معاني غير معانيها الواضحة؛ فإذا ما اكتشف السامع أنَّ ما يقصده المتكلم هو هذا المعنى الغريب يسخر من فهمه الأول لمعنى الجملة، فيضحك ويكون التلاعب اللفظي باختصار الفكرة أو بالإضافة إليها بحيث تخرجها عن معناها الأصلي أو تبديل الكلمات المكونة لها، أو ينحت بعض ألفاظها أو بتقسيمها أو بالعبث بإعجامها[33]؛ فهذا النوع من السخرية فيه نوع من التعريض ليلفت نظر المُتلقي للعدو الذي احتلَّ وطنه وقتل ابنه، وهو يُدين أعمال عصابات الأعداء الذين ينشرون الأكاذيب اليهودية بأنَّ فلسطين هي وعد الله المنشود لهم، وأحلَّ لهم كل الجرائم والمذابح التي يقومون بها بحق شعب أعزل مسكين؛ فاللعب بالألفاظ له هدف واحد لكل من يتلقاه، وهو أنَّ هذه الجرائم لا يقبل بها لا الخالق ولا المخلوق وعلى المسلمين أنْ ينصروا أهل فلسطين بكل السبل المُتاحة. ولذلك، قام بالتعريض في نهاية الأبيات بأنَّ العرب حمامات سلام لا يستخدمون القوة للدفاع عن الأرض والعرض لضعفهم واستسلامهم، فليس فيهم من يستخدم القوة (جارح) ليذود عن الحمى. ويسخر رجا سمرين في قصيدة ثانية من بعض الدول الضعيفة؛ فيقول[34]:

لا حاجةً للطائـرا ... ت وللمدافعِ والرواجمْ
فالشجبُ والتنديد سوفَ ... يردُّ عاديةَ المُهاجمْ
حلَّت مَحلَّ سيوفِهم ... حُجُبٌ مُطلسِمةُ التَّمائِمْ

لقد ظنَّت بعض الدُّول العربية أنَّها ليست بحاجة للأسلحة للدفاع عن أرضها، واكتفتْ بتنديد وشجب أفعال المناضلين والثوار والعمليات الفدائية التي تقوم بها المُقاومة الفلسطينية، وظنَّت أنَّ العدو لن يُهاجم بلادها لتعاطفها معه والتنديد بالمُقاومة، ولكن ذلك لم يمنع العدو من مهاجمة بلادهَم وقتل مواطنيهم. فقد خابت توقعاتهم مع عدو لا يعرف الرحمة حتى مع التمائم والحُجب التي ظنوا أنَّها ستحميهم من الأعداء.

ويسخر سمرين من دول أُخرى تملك الأسلحة، ولا تستخدمها إلاَّ في الاحتفالات للتباهي والتفاخر وليس للدفاع بها عن المسلمين وطرد اليهود من فلسطين. يقول سمرين[35]:

والطائراتُ لدى الأعاربِ جمَّةٌ
تُقعي كما تُقعي الكلابُ وترقُدُ
لا تعرفُ التحليقَ إلاَّ عندما
يخشى الزعيم من الجموع ويرعدُ
أو حينَ يحتفلُ الزعيمُ بعرشهِ
وبعيد مولدهِ السنيَّ ويَسعدُ
صدئتْ وما رُئيتْ بيومٍ مرَّةً
نحو الصهاينةِ اللئامِ تُسدِّدُ

فالأسلحة وُجِدتْ ليُحارَب بها ويُدافِع صاحبها عن أرضه وعرضه بها، وليس للتباهي والاحتفال فقط، ومهما كثُرت فإنْ لم تُستخدم لِما صُنعت لأجله أصبحت وبالاً على مَنْ يمتلكها، ومصدر إدانة وليس فخراً. وفي قصيدة أُخرى يسخر فيها من حال العرب وما وصلوا إليه من بؤس في العالم. يقول سمرين[36]:

قد قلتُ رأيي، ولكن لستُ أُعلنهُ
في أُمةٍ أصبحت كوماً من الجيفِ
لو أنَّ ما قلتهُ في شأنها قرأتْ
سطوره البهم ما لانت لمعتسفِ
لكنها لم تزل حيرى موزعةً
يقودها الخلفُ للإخفاقِ والتلفِ

لقد استخدم السخرية السوداوية لتشاؤمه، والسخرية السوداء (الفجائعيَّة) هي "رؤية يراها الكاتب ويصوغها بسخاء ماكر...؛ فهي بقدر ما تفتح للبسمة طاقة للنقيض والمُتناقض وانحياز للإصلاح بقدر ما تُعطي صورة قاتمة وفجائعيَّة مأساويَّة للواقع لأجل تغييره، بتصوير عيوب الحاضر والتدهور الذي وصل إليه المُجتمع"[37]، "وهي ذات مذاق سيء يجد القُرَّاء صعوبة في تقرير ما إذا كان عليهم أن يُهاجموها أو الانصراف عنها أو الضحك عليها بشكل صاخب لما تطرحه من فجائعيه"[38].

لقد أصبحت أمة العرب بحالة يُرثى لها، بصمتها وسكوتها على تغوُّل الأعداء عليها، وعدم مقاومتها لهم؛ فأصبح العرب جيف الميّتة؛ فلو كانت كالبهائم فقد يصدر عنها ردَّ فعل في بعض الأوقات لكن أُمة العرب لا يصدر عنها ما يُشعر الأعداء بحياتها، ويرى أنَّ التخلف هو الذي أوصلها لهذه الحالة من الفشل والتلف، ولو طلبت العلم لتغيَّر حالها وتمرَّدت على عدوها.

ويسخر سمرين من ضعف العرب وتغوُّل المحتل عليهم؛ فأصبح كالجزَّار وأصبحوا كالأغنام؛ فيطلب من الأعداء أنْ يفعلوا ما يحلوا لهم بهم، لأنه لم يبق عندهم رجال يُدافعون عنهم. وهذه الصورة الفجائعية التي رسمها الشاعر للعرب تدلُّ على مرارة ما وصلت إليه حالتهم من استسلام وذل هو يرفُضه ويعتصر ألماً لرؤيته.

وبعد موت محمود درويش رثاه سمرين في قصيدة رائعة بعنوان "إيه درويش"، وفصَّل فيها أسباب رفضه وهنأ شاعره العظيم بالموت الذي عدَّه انتصاراً بعد رحلة الخذلان التي عاشها مُتنقلاً في مسيرته النضالية والتي أضعفت قلبه، وكانت سبب موته. يقول سمرين[39]:

لمْ يُطِقْ قلبكَ الكبير بقاءً ... بعد عمرٍ بالحزنِ والهمِّ مُثقلْ
إيه درويش كم نجوتَ من الموتِ ... وما كنتَ راحلاً يتعجَّلْ
لمْ تودِّعْ بيروت يوماً لتلقى ... ألفَ بعدها حين ترحلْ
هائماً في الشتات مثل ضليلٍ ... لمْ يجد في السراب رياً مؤملْ
راثياً قلبك الذي لم يُصادف ... في صحاري الأعرابِ ستراً مُظللْ

لقد ظنَّ بأنَّ النضال يقبع بينه وبين المحتل فقط، ولكن الواقع أظهر أنَّ العدو قد يكون من الأقرباء وعداوتهم أشد مضاضة من الأعداء؛ فهو يسخر من واقع جعل قلب درويش لا يحتمله؛ فكان سبب موته. ثمَّ يستخدم سمرين الاستفهام الذي يحمل في طياته الإنكار مُخاطباً درويش[40]:

إيه درويش – والحديث شجون ... كم سؤال في خاطري ليس يُسألْ
كيف صرنا إلى الذي نحن فيه ... من خلافٍ مُمزقٍ لا يُعَلَّلْ

فهو يُخبر درويش ويُحادثه مُستخدماً (كم) الخبرية التي تدل على الكثرة؛ فكثير من الأسئلة يريد طرحها، لكنه يعرف الأجوبة فكيف يسألها، ثُمَّ يعدل بطرح سؤال في ظاهرِهِ يتحدث عن الفرقة عند العرب (كيف صرنا إلى الذي نحن فيه) لكنه غير المقصود، والمقصود أنَّ المُناضلين أصبحوا ممزقين إلى منظمات وأحزاب وجماعات مما أضعفوا القضية وحركة المقاومة فزاد ذلك من حالة الرفض وأعاق تحرير الوطن. يقول[41]:

كيف نرضى وكيف نقبلُ طوعاً ... بالتشظي والجهاد المُعطَّلْ
أينَ أُوسلو وما تقرر فيها؟ ... كل شيء جاءت به قد تبدَّلْ
كيف نرضى أن يسلبونا بلاداً ... هي أسمى البلاد قدراً وأجملْ
ثُمَّ نرضى بسلطة ليس فيها ... الفتات المهلهلْ من بلادي غير

ففكرة السلطة على بعض فلسطين رفضها سمرين كما رفضها درويش من قبل. لذا، ترك الحياة السياسية واتَّجه للشعر بعد فقدانه الأمل بتحرير وطنه كله. لقد أصبح وطنه سجناً كبيراً لأهله. لقد بدأ بالاستفهام المجازي (كيف نرضى؟) وهي أداة وعلامة من علامات الرفض الشكلي، لأنَّه لا يُريد إجابة لأنَّه يعرفها فيستخدم الاستفهام لرفض الواقع، كما رفض الشعب كله معاهدة أُوسلو لأجل إعطاء المُناضلين سلطة على بعض المناطق المُقطَّعة المفصولة عن بعضها (رام الله وغزة) حتى يتوقف النضال لتحرير الوطن، وكرر كلمة (نرضى) لتعميق الرفض بالنفي وعدم الرضى؛ فقد بيعت فلسطين لأجل الفتات منها.

وهنا، يتوحد رأي الشعراء المُناضلين بأنَّ النضال لتحرير الوطن هو ما نريده وليس الفتات، وسلطة تمنع وتحجز المُناضلين عن قتال المحتل لتحرير الوطن، فتصبح السخرية هنا فجائعية؛ إذْ تحوَّلت فلسطين من وطن إلى فتات مبعثر وسجن كبير لا فرار منه؛ فالسخرية هنا تلقي الضوء على مصير قاتم ومظلم فجائعي، بعد أنْ أصبح المجاهدون فصائل وحركات وضعفت شوكتهم وتوقفوا عن المقاومة ورضوا بأجزاء قليلة مُبعثرة من وطنهم، وقد كانوا في الماضي من المستحيل أن يقبلوا بذلك، فكيف الآن رضوا بهذه المعاهدة الظالمة؟ فسمرين يستنكر ذلك كما استنكره الكثيرون ويرفضه ويسخر من فرقتهم التي أضعفت قضيتهم وحرفتهم عن تحقيق أهدافهم؛ فالقصيدة تحمل الإدانة الكاملة للمناضلين ويُحمِّلهم فيها تبعية ضعفهم وفرقتهم وتأخر تحرير وطنهم عسى ينتبهوا فيتوحدوا ويرجعوا لطريق النضال والجهاد الذي كان طريقهم فيرجعوا إليه.

2. السخرية الاجتماعية

الشاعر الساخر هو الذي يمتلك الحس المُرهف للمثالب والعيوب في مجتمعه، يُراقب ويصف ما يرى من نقائص بهدف التصحيح والإصلاح. وشعر رجا سمرين لا يتوقف على السخرية السياسية وإنَّما تعداها لكل مجالات الحياة. ويرى أنَّ المجال الاجتماعي من المجالات المُهمَّة التي من خلالها يُصلح عيوب المجتمع، والذي من خلاله تصلح أُمة العرب. وترى نيفين عمرو أنَّ الشعراء عبَّروا عن مجتمعهم ومجريات أحداثه، ونفَّسوا من خلال الشعر عما يسري بأنفسهم من مشاعر بأُسلوب مُتهكم ساخر، يهدف إلى التخلص من الخصال السلبية في مجتمعهم[42]. وسمرين تعرَّض بالسخرية لنماذج فاسدة في المجتمع، سخر منها وجعل صفاتها وسلوكاتها دلالة على فساد المجتمع. من ذلك قصيدته التي يتهكم فيها من جهل أحد الأطباء عندما راجعه لكسر في يده[43]:

لجأتُ إلى الطبِّ الحديث لعلني
أرى شافياً للكسرِ في ذلكَ الطِّبِّ
فقال الطبيب الفذُّ من بعد فحصه
وقبضِ رسومٍ ناء من حملها جيبي
تصبَّر فما في الطبِّ شافٍ لحالةٍ
كحالتكم، فاطلبْ شفاكَ من الرَّبِّ

والتهكم هو "الاستخفاف والاستهزاء والعبث"[44]. وهو مصدر من مصادر السخرية، "يستثير الضحك المرير بالسخرية التي تتجه إلى المجتمع وإلى النوع الإنساني تتناول تناقضاته وسخافاته وغرائبه ومُفارقاته ناقداً لها لتطهيرها مما علقت به من تناقض عن المُثل وهو نابع من تشاؤم للصورة المُخالفة لعالم المُثل"[45]؛ فهو من الاستهزاء.

"والتهكم يُصار به إلى الجد من حيث هو هزل، والهزل يذهب به مذهباً هزلياً من حيث هو جد. وقد حفل القرآن بهذه الرؤية الفنيَّة التهكميَّة"[46]؛ فإجابة هذا الطبيب للمريض بعد قبض الرسوم، بعدم وجود

علاج للكسر يدلُّ على جهل الطبيب، مما استدعى الشاعر إلى السخرية منه والتهكم على طبِّه الحديث الذي لا يجد به علاجاً ليده. والحقيقة، ليست سخريته من الطب، ولكن من الطبيب الجاهل الذي يحصل على شهادة دون اكتساب علم حقيقي يفيد به مرضاه، وهو يرى أنَّ مهنة الطب رسالة وهذا الطبيب حوَّلها لمصدر لربح المال حيث يأخذ أُجرة عالية لا يستحقُّها، لأنَّه لا يُقدِّم خدمة حقيقيَّة لمرضاه.

ويسخر سمرين من باب الهزل من نفاق الناس لصاحب المركز، ومتى ما ذهب المركز ذهبوا عنه، وهذا حاله عندما كان موجهاً لمعلمي اللغة العربية. يقول[47]:

كان لي "شنة ورنة"
هيبتي ترعدُ أوصال الرجالْ
إنْ رأوني مُقبلاً صاروا كربات الحجالْ
حينما أدخلُ فصلاً من فصول المدرسة
تمَّحي شخصية الأُستاذ، يغدو خُنفُسةْ
شرحُهُ للدرسِ يغدو هذياناً هلوسةْ
ومضى السلطان عني
لم يعد يدخل بيتي أحد من هؤلاءْ
إنهم أبناء دنيا صفوها مَحضُ هُراء

الهزل: الهزل عكس الجد، والهزيل أيضاً الضعيف والمريض من سفر أو حدب وكثيراً ما يقولون شخصية هزلية، أي لا يتخذ موقفاً جاداً[48]. ويذكر القاضي الجرجاني أنَّ "أبلغ الهجو ما خرج مخرج الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس"[49].

والهزل من مُترادفات الفكاهة والضحك، فنحن نضحك حين نسمع النكتة أو النادرة أو الفكاهة، أي أن ينزع الموضوع إلى الهزل. الهزل يُراد به الجد: بأن يقول سخرية في صورة هازلة، وهذا الهزل فيه جديَّة الإرادة وصم المهجو بالذَّم والعيب الفاضح[50]. "والفن الهزلي لم يكن نوعاً من اللهو واللعب، هو مجهود يبذله الإنسان لكي يصير وعياً من الناحية الفكرية" [51]. وهناك من الشعراء من لجأ إلى السخرية بهدف التلهي والضحك، ودفع السآمة والملل، ورفع كابوس الهمّ والحزن، وإبعاد النفس عن مشاغل الحياة بإطلاقها من أسرِ الجد [52]؛ فالشاعر يسخر من فئة من المعلمين مُستخدماً الهزل كنوع من السخرية عندما عمل موجهاً عليهم، فهم يُداهنونه ويُنافقون له ويتصنعون الودَّ والمحبة له لمنصبه، وعندما ذهب المنصب عنه يجافونه ويُنكرونه، ويظهر زيف مودتهم المُصطنعة؛ فقام سمرين برسم صورة هزلية لعملهم، تشبه تصوير الجاحظ للبخلاء، بل لعلها أكثر الألوان التي "استخدمها الجاحظ لرسم صورة البخيل الفنِّيّة ويتجلَّى ذلك خصوصاً في التصوير النفسي. والوجه الفنِّي الثاني نابع من اهتمام الجاحظ بقارئه وحرصه على إمتاعه وتنشيطه"[53]. وهذا ما قام به سمرين عندما وصفهم في مُشاهدة، قبل بناء العلاقة كانوا كالنساء وتضاءلوا أمامه، ليصبح

الواحد منهم كالخنفساء، وكلامهم في شرح دروسهم أمامه هذياناً وهلوسات، ليدل على خوفهم وضعفهم. وبعد أن تقرَّبوا منه أصبحوا يزورونه دائماً ويرافقونه دون انقطاع، وبعد أنْ ذهب منصبه تغيرت أحوالهم وانفضُّوا عنه، وتبيَّن ودُّهم بأنَّه تمثيل لا حقيقة له كالسراب الخادع.

3. السخرية الدينية

وهو نوع من الهجاء الذي يسخر من عيوب وأفعال أصحاب الدين والصفات السلبية التي يحملونها من بخل وغباء وثقل...، ويُعرِّض سمرين بقصيدة له بعلماء السلاطين؛ فيقول [54]:

وتذودُ عن أوطانهم دعوات أربابِ العمائمْ
من كل ذي فتوى خنو عٍ يرتجي نيل المغانمْ
ما همَّهُ إلاَّ رضا ملكٍ وسلطانٍ وحاكمْ

فهو يسخر من أصحاب الدين الذين يتخذون من الدين وظيفة لإرضاء الجكام ويفتون بفتاوٍ ترضيهم، لأخذ الأُجور والمغانم التي تبقيهم أغنياء؛ فيبيعون دينهم بدنياهم، وهمهم الوحيد رضى الحكام. ويسخر من دعواتهم لِحماية الدولة من الأعداء، لأنَّ الحماية الحقيقة تكون باستخدام القوة وليس بالدعاء وحده.

وفي قصيدة أُخرى يسخر من الواعظين الذين يتخذون من الوعظ عملاً يتلقون عليه أجراً. يقول سمرين[55]:

بينما الواعظون يُلقونَ وعظاً
ثُمَّ يبنونَ بالأُجور القصورا
ليسَ يرضونَ بالقليلِ من الأجرِ
ولا يأخذون إلاَّ الكثيرا

فهو يراهم كالتجار، يُتاجرون بالدِّين، ولو كانوا أصحاب دين حقاً لما اتخذوا من الدين مصدراً للغنى وأخذ الأُجور العالية لبناء القصور، لأن وعظ الناس واجب ديني يُؤخذ أجره من الله؛ فيدين سلوكهم لينتبهوا أنَّ ما يفعلونه لا يُرضي الله ورسوله، عسى يتغيَّر حالهم وسلوكهم.

4. السخرية الأدبية والنقدية

يسخر الشاعر من الأدباء والنقاد المتعصبين والظالمين ويدين أقوالهم وأفعالهم الخاطئة المتحاملة على الشعراء النوابغ؛ فهو يسخر، في قصيدة له، من النقاد الذين رافقوا جثة الشاعر إلى قبره، وبكوه وهم يعدِّدون مناقبه رغم أنَّهم كانوا سبب مُعاناته في حياته بنقدهم لشعره وتزييف أقواله والتهجُّم عليه تحاملاً، وقد يكونون سبب موته أيضاً. يقول سمرين[56]:

طوبى لكم
طوبى لكم
يا أيُّها المُشيعون
وعظَّمَ الله لكم أجركم الثمين

فقد دفنتم شاعراً مُعذباً حزين
لم يلقَ في حياته منكم سوى الجحود
فعاشَ في صفوفكم مُشرَّداً طريد

يبدأ سمرين قصيدته بمدح تصرفهم من تشييع الشاعر بعد موته تهكماً؛ فقد كانوا سبب معاناته في حياته، وهم بعد موته يشيعونه ويقولون الخطب والقصائد في رثائه وتأبينه، ويسخر من حالهم هذه حيث يُعادونه حيًّا ويبكونه ميّتاً. وهذا التناقض العجيب في تصرفهم ينبئ عن نفسياتهم المريضة ونفاقهم، والحقد على كل ناجح يفوقهم شاعرية. وهو، هنا، يشكو ما حلَّ به من الأدباء والنقاد الذين نقدوا شعره تحامُلاً منهم عليه؛ فهم يريدون التسبب ظلماً بموته، ثُمَّ كعادتهم سوف يُشيعونه ويقومون برثاءه وتأبينه كما فعلوا مع غيره من الشعراء؛ فهم سبب مُعاناته في الدنيا وسبب موته.

5. خاتمة

إنَّ استخدام السخرية كنهج شعري هو سلاح مميت، ولا يستطيع استخدامه إلاَّ الشعراء الذين عانوا كثيراً في حياتهم، وتحولت معاناتهم إلى نوع من السخرية المريرة التي يلجأ إليها الشاعر لإصلاح الحال والقضاء على العيوب والأمراض المجتمعيَّة من خلال سخريته السياسية؛ فهي أداة لتصحيح الأوضاع ونشر الأمل من أجل غاية سامية وهي عند رجا سمرين سلاح فعال لإدانة الواقع أملاً في تحرير فلسطين وطرد اليهود منها. لذا، يطلب من كل العرب ترك الخلاف والتخلف والسعي في طلب العلم وتطوير الأسلحة، ليصبح العرب من الدول القوية مرهوبة الجانب. ولا تتوقف سخريته عند المجال السياسي، بل تتعداها إلى جميع المجالات الاجتماعية والدينية والسياسية والأدبية والنقدية، بهدف الإصلاح وهي الخطوة الأُولى لتحرير فلسطين وطرد المُحتل، وإرجاع المسلمين كسابق عهدهم قادة الأُمم ومصدر فخر وعزة. وقد نحا بالسخرية منحى جديداً؛ إذ جعلها سخرية فظائعية سوداوية تلقي الضوء على عيوب العرب والأخطار المُحيقة بهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم وهم في ضعفهم ونومهم، متناسين أنَّ القوي الذي يملك الأسلحة الحديثة له حق الدفاع عن نفسه وأُمته ومنْ يجنح للسلام مع ضعفه يطمع به الأعداء.

وأمَّا أهم الاستنتاجات التي توصلت إليها هذه الدراسة:

1- لجأ سمرين إلى السخرية في شعره بشكل مقصود جراء خيبة أمله من تحرير وطنه والعودة إليه.
2- الذي دفع سمرين إلى استخدام السخرية كأداة نضالية؛ إذ عن طريقها يستثير همم العرب والمسلمين لهبوا للدفاع عن فلسطين ويطردوا المحتل، ويصلحوا عيوبهم في جميع مجالات حياتهم.
3- والرسالة التي يريد أن يوصلها من خلال توظيفه للسخرية كملمح أُسلوبي هي أنَّ العرب والمسلمين لو كانوا يريدون أن يرجعوا عُظماء؛ فما عليهم إلاَّ بالرجوع إلى دينهم وطلب العلم والاتحاد للوقوف بوجه

الظلم بمختلف أشكاله ومواجهة الاحتلال وطرده وتحرير المقدسات بالقوة، لأنه ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلّا بالقوة وليس بالمعاهدات والاتفاقيات.

4- وجد سمرين في شعره قوة على التغيير إذا استخدمه مُغلفاً بالسخرية والتهكم عن طريق تهويل الواقع وسوداويته وفظاعته؛ فأكثر من رفض الواقع والسخرية من العرب ليفيقوا حتى لا يموتوا على يد أعدائهم كالخراف في أيدي الجزارين وأيدي الذئاب الذين يتربصون بهم.

6. التوصيات

رجا سمرين من شعراء المقاومة الفلسطينية أُوصي بدراسة الرفض في شعره و،كذلك، الرثاء الفجائعي الذي يدين الواقع من خلاله والذي يشبه بأسلوبه القناع الشعري.

الهوامش

1) رجا محمد عبد الله سُمرين (7 مارس 1929 - 11 مارس 2018): هو شاعر وأستاذ جامعي أردني – فلسطيني الأصل، حصل على شهادة الدكتوراه سنة 1972. تنقَّل للعمل في العديد من الدول العربية معلماً، وعندما دخل اليهود إلى لبنان وكان ابنه الثاني محمد يدرس فيها، فاستُشهِدَ على يدهم في عام 1982م. فهبَّ رجا سمرين غاضباً يدعو للجهاد، وعندما وُقِّعت اتفاقية أُوسلو عام 1997م رفضها ودعا إلى التمرد عليها؛ لأنَّه لا يُعقد سلام مع من سرقوا الأوطان وقتلوا الأولاد وطردوا شعباً وشتتوه وبعد فقدان الأمل استسلم للواقع الكئيب وبقي حزيناً حتى في يوم 11 مارس 2018.

له العديد من الدراسات النقدية والدواوين: ومن دواوينه الضائعون، شعر، 1960، وتبقى الفوارس قرب الجياد، شعر، 1984، 6-الطريق إلى أرض ليلى، شعر، 1990، يُنظر: رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة، دار اليراع للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002، ص 7- 20.

2) ابن منظور، محمد بن علي أبو الفضل جمال الدين(ت711ه)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مادة (سخر).

3) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت395ه)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، مصر، ط3، 1980، ص 144.

4) انظر: شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 289، يناير 2003، ص 51.

5) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، (ت456ه)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ط4، ج2، 1972، ص 172 – 173.

6) حامد عبده الهوَّال، السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1982، ص 17.

7) انظر: أحمد محمد الحوفي، الفكاهة في الأدب العربي أُصولها وأنواعها، مكتبة نهضة مصر، مصر، ج1، 1956، ص 15.

8) نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار التوفيقيَّة للطباعة، القاهرة، ط1، 1978، ص 13.

9) عبد الخالق عبد الله عودة عيسى، السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث، 2003، ص 15.

10) حسين خريوش، أدب الفكاهة الأندلسي، منشورات جامعة اليرموك، الأردن، 1982، ص 33.

11) عبد الخالق عبد الله عودة عيسى، السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث، 2003، ص 15.

12) ديب علي حسن، النكتة العربية بين الماضي والحاضر، 1996، ص 22.

13) إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، عمان، ط2، 1992، ص 158.

14) رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة،2002، ص 499.
15) محمد العبد، المفارقة القرآنيَّة -دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 54.
16) رجا سمرين، 2002، الأعمال الشعرية الكاملة، 499.
17) حامد عبده الهوَّال، السخرية في أدب المازني، 1982، ص47.
18) لطيفة عبد الله الحمادي، السخرية في المقامة الصورية لليازجي- دراسة تداوليَّة، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبيَّة، جامعة ذمار، ع12، 2021، ص 410.
19) رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة، دار اليراع للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002، ص 17.
20) المصدر نفسه، 503.
21) محمد العبد، المفارقة القرآنيَّة - دراسة في بنية الدلالة، 2006، ص 202.
22) سمرين، رجا، 2002، الأعمال الشعرية الكاملة، ص528 – 529.
23) حامد عبده الهوَّال، السخرية في أدب المازني،1982، ص 16 – 17.
24) عمرو، نيفين محمد شاكر2009، السخرية في الشعر في العصر المملوكي الأول، (رسالة ماجستير)، جامعة الخليل، فلسطين، ص 6.
25) رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة، 2002، ص 272.
26) عبد النبي ذاكر، استراتيجيات السخرية في رواية (إميلشيل)، مجلة فصول، القاهرة، مجلد 12، عدد2، صيف 1993، ص 309.
27) القرآن الكريم، الانشقاق، آية 24.
28) القرآن الكريم، الدخان، آية 49.
29) الهَوال، حامد عبده، السخرية في أدب المازني، 1982، ص 43.
30) رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة، 2002، ص 272.
31) أبو مالك غياث بن غوث بن طارقة الأخطل، (ت92ه)، الديوان، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994، ص 166.
32) رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة، 2002، ص 63 – 64.
33) انظر: حامد عبده الهَوال، السخرية في أدب المازني، 1982، ص 44 – 45.
34) رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة، 2002، ص 27.
35)المصدر نفسه، ص 186 – 187.
36) المصدر نفسه،ص 37.
37) عبد النبي ذاكر، استراتيجيات السخرية في رواية (إميلشيل)، مجلة فصول، القاهرة، مجلد 12، عدد2، صيف1993، ص 323.
38) جلين ويلسون، سيكولوجية فنون الأداء، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 289، حزيران 2000، ص 339.
39)، هشام عودة، وآخرون، الشعر في الأردن، مطبعة السفير، عمان، ط1، 2013، ص 214 – 215.
40)المرجع نفسه، 2013، ص 214 – 215.
41)المرجع نفسه، 2013، ص 216 – 217.
42) انظر: نيفين محمد شاكر عمرو، السخرية في الشعر في العصر المملوكي الأول، (رسالة ماجستير)، جامعة الخليل، 2009، ص 2.
43) رجا سمرين، 2002، ص 103 – 104.
44) عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، القاهرة، ط1، 1992، ص 43.
45) المصدر نفسه، ص 116.
46) عباس محمود العقاد، جحا الضاحك المُضحك، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، 1956، ص 66.
47) رجا سمرين، 2002، ص 105 – 107.
48)حسن، ديب علي (1996)، النكتة بين الماضي والحاضر، المنارة للطباعة والنشر، سوريا، ط1، ص 23.
49) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني(ت456ه)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، 1972، ص 171.
50) حامد عبده الهوَّال، السخرية في أدب المازني، 1982، ص 41 – 49.

51) حسين خريوش، أدب الفكاهة الأندلسي، 1982، ص 11 – 12.

52) انظر: محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، الجيزة، مصر، ج3، ط2، 1962، ص 411.

53) أحمد بن محمد بن امبيريك، صورة بخيل الجاحظ الفنِّيَّة، دار الشؤون العامة، بغداد، 1986، ص 161.

54) رجا سمرين، 2002، ص 28.

55) المصدر نفسه، 499.

56) المصدر نفسه، 361.

المصادر والمراجع

المراجع

-القرآن الكريم

- أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني، (ت 456ه)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ج2، ط4، 1972.

- أبو مالك غياث بن غوث بن طارقة الأخطل(ت92ه)، الديوان، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994.

- إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، عمان، ط2، 1992.

- أحمد بن محمد ابن إمبيريك، صورة بخيل الجاحظ الفنِّيَّة، دار الشؤون العامة، بغداد، 1986.

- أحمد محمد الحوفي، الفكاهة في الأدب العربي أُصولها وأنواعها، مكتبة نهضة مصر، مصر، ج1، 1956.

- حامد عبده الهوَّال، السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1982.

- حسين خريوش، أدب الفكاهة الأندلسي، منشورات جامعة اليرموك، الأردن، 1982.

- ديب علي حسن، النكتة العربية بين الماضي والحاضر، المنارة للطباعة والنشر، سوريا، ط1، 1996.

- رجا سمرين، الأعمال الشعرية الكاملة، دار اليراع للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002.

- - عباس محمود العقاد، جحا الضاحك المُضحك، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، 1956.

- عودة هشام وآخرون، الشعر في الأردن، مطبعة السفير، عمان، ط1، 2013.

- محمد العبد، المفارقة القرآنيَّة -دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.

- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، الجيزة، مصر، ج3، ط2، 1962.

- نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار التوفيقيَّة للطباعة، القاهرة، ط1، 1978.

الأطروحات الجامعية

- نيفين محمد شاكر عمرو، السخرية في الشعر في العصر المملوكي الأول، (رسالة ماجستير)، جامعة الخليل، فلسطين، 2009.

المعاجم

- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت 395ه)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، مصر، ط3، 1980

- أبو الفضل جمال الدين محد بن مكرم بن منظور (ت 711ه)، لسان العرب، مج 7، مادة رفض، دار صادر، بيروت، (د.ت).

المقالات

- جلين ويلسون، سيكولوجية فنون الأداء، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 289، حزيران 2000.

- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 289، يناير 2003.

- عبد النبي ذاكر، استراتيجيات السخرية في رواية (إميلشيل)، مجلة فصول، القاهرة، مجلد 12، عدد 2، صيف 1993.

- لطيفة عبد الله الحمادي، السخرية في المقامة الصورية لليازجي- دراسة تداوليَّة، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبيَّة، جامعة ذمار، اليمن، ع12، 2021.